اسامة بن منقذ وابن السلار

الفتنا احد الفضلاء الى خطإٍ في الصفحة ٤٨٣ من الجزء السادس حيث خطأنا الامير اسامة بن منقذ الكناني في زمن الملك العادل. والصواب ماذكرهُ اسامة لان الملك العادل الذي دخل اسامة في عهدهِ هو ابن السلار وزير الخليفة الظافر بالله وكان يلقب بالملك العادل وهو غير الملك العادل الذي خلف الملك الصالح. فشكرهُ على تنبيهنا الى اصلاح هذا الخطإ

ومن رأى هذا الفاضل ان الامير اسامة كان داهية مكّارًا وهو السبب في قتل الخليفة الظافر واخوتهِ والملك العادل وربيبهِ عباس بن ابي الفتوح وابنهِ نصر مستندًا في ذلك كلهِ الى ما رواهُ ابن الاثير في حوادث سنة ٥٤٨ و ٥٤٩ فقد ذكر في تاريخ السنة الاولى ان في المحرم منها قُتل الملك العادل بن السلار باغراء الامير اسامة بن منقذ الكناني وموافقة الخليفة الظافر بالله العلوي فان الامير اسامة اغرى بقتله عباسًا بن ابي الفتوح بن يحيى الصنهاجي وكان الملك العادل قد تزوج بام عباس هذا بعد قدومها الديار المصرية من المهدية ووفاة زوجها فامر عباس ولدهُ نصرًا فدخل على الملك العادل وهو عند جدتهِ وقتلهُ وولي عباس الوزارة بعدهُ

وذكر في حوادث سنة ٥٤٩ ان اسامة احفظ نصرًا هذا ابن الوزير عباس على الخليفة الظافر بالله بكلام قبيح فاستدعى نصر الخليفة الى دارهِ وقتلهُ هو واتباعهُ ثم مضى ابوهُ الى دار الخليفة وقتل اخويهِ يوسف وجبريل ونهم اموالهُ وجواهرهُ وفرَّ بابنهِ وبالامير اسامة الى بلاد الشام من وجه الملك الصالح الذي جاء من منية ابن خصيب للطالبة بدم الخليفة فوقعوا في يد الافرنج فقتلوا عباسًا واسروا ابنهُ فافتداهُ منهم الملك الصالح وقتلهُ وصلبهُ على باب زويلة اما اسامة فنجا بنفسهِ ولم ينلهُ الافرنج بسوء . ومن راي الفاضل المشار اليهِ آنفًا ان اسامة هو الذي اغرى الافرنج حتى اوقعوا بعباس وابنهِ ولولا ذلك ما نجا بنفسهِ منهم

ولم يكن ابن الاثير معاصرًا لاسامة فهو ناقل ما رواهُ فاذا لم يكن للمؤرخين الذين نقل عنهم غرض من الوقيعة باسامة فيكون هذا الرجل داهية من الدواهي لا سيما وانهُ لم يذكر الملك العادل في كتابهِ لباب الآداب الاَّ قال رضي الله عنهُ او رحمهُ الله . وكتابهُ خالٍ من كل تحريف وتعشية لانهُ نسختهُ الاصلية وآدابهُ رائعة جدًّا قلما يجتمل صدورها من رجل لئيم يسعى في قتل من احسن اليهِ ويتمُّ النهائم الفاسدة السمجة . وواضح عمَّا ذكرهُ

ابن خلكان انهُ كان لاسامة اناس يمدحونهُ كالعماد الكاتب الذي لقيهُ وكان يتمنى ابدًا لقياهُ ويشيم على البعد محياهُ . واناس يذمونهُ كمن قال ان العادل بن السلار احسن اليهِ فعمل هو على قتلهِ . والظاهر ان ابن الاثير اعتمد على رواية هذا الاخير

وقد ابنّا في اول مقالة كتبناها من كتابهِ لباب الآداب في المجلد الثاني والثلاثين من المقتطف انهُ عارض الراغب الاصبهاني صاحب كتاب محاضرات الادباء وخالفهُ فبينما ترى الاصبهاني يذكر آيات الطاعة واحاديث الخضوع ترى اسامة يذكر آيات اللين للرعية ومشاورتها واحاديث العدل فيها والبر بها . اي ان الاصبهاني كان يدعو الى الحكومة المطلقة واسامة الى الحكومة المقيدة فلا يبعد ان يكون مذهبهُ السياسي هذا قد حمل بعض المتزلفين الى الملوك والولاة فانتقصوهُ واغتابوهُ . وليس لدينا الآن ادلة قاطعة على صحة هذا الاستنتاج ولكنهُ اولى من اتهام امير اديب مثل اسامة لقيهُ العماد الكاتب وذكرهُ بالتجلة والاكرام نهمةً شنعاء يترفّع عنها غير الاخساء ألا وهي الاساءة الى من احسن اليهِ. اما اذا وجدت ادلة صريحة على انهُ كان كذلك واصحابها عدول ومن معاصريهِ لزمنا التسليم بها لان الافعال كثيرًا ما تخالف الاقوال وما هذا خاص بالشعراء والامراء كما قال ابن الرومي

يقولون ما لا يفعلون سفاهة من الله مسبوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحدهُ بل زيادة يقولون ما لا تفعل الامراء

بل يشترك فيهِ كثيرون من كل طوائف الناس يطباع مخلوقة فيهم موروثة من اسلافهم

ولن يستطيع الدهر تغييرَ خلقهِ لئيم ولن يستطيعهُ متكرّمُ
كما ان ماء المزن ما ذيق سائغٌ زلال وماء البحر يلفظهُ الفمُ

وكم من رجل تراهُ من اعلى الكتّاب كعبًا واقدرهم على النصح والارشاد وهو مع ذلك لا يفتر عن الدسائس والفتن ولو على غير قصد الشر والاضرار بالناس ولله في خلقهِ شؤون

وخلاصة المقال اننا نشكر حضرة الفاضل الذي افتنا الى الخطإ في تاريخ الملك العادل اما كيفيةُ وقوع هذا الخطإ فمن انواع الذهول التي يحسن ان تفرد لها فصلاً نشرحها فيهِ شرحًا وافيًا . ويظهر لنا ان ما نسب الى اسامة من اللؤم غير قرين الصحة لان اقوالهُ واقوال العماد الكاتب الذي لقيهُ ثنائيهِ فاذا عثر احد القراء على ادلة قاطعة تؤيد ذلك او تنفيهِ فليتكرّم علينا بها ولهُ الشكر